(٣)

حياتنا الثقافية .. المشكل والحل

لا أريد أن أكون مع الذين يعقدون الأمور فيقولون إن هناك تدهوراً فى حياتنا الثقافية اليوم ، ولكنى لا أريد أيضا أن أكون مع الذين يبسطون الأمور فيقولون أن هناك نهضة فى هذه الحياة ، فالصورة العامة لحياتنا الثقافية اليوم - كما أراها - أنها ليست صاعدة إلى السماء ، ولكنها ليست هابطة إلى الأرض، وإنما هى - إذا استعرنا التعبير الفنى - حياة فى مستوى النظر ، فهناك نشاط فى غير قليل من مجالاتها لا نستطيع أن ننكره، ولكنه نشاط يخيل لمن يرصده أنه نشاط غير منهجى لاهدف له ولا خطة، نشاط كالماء لا لون له ولاطعم ، وكأننا نعيش فى حالة من حالات انعدام الوزن لا نعرف مستقراً لأقدامنا، ولا نملك تلك القوة التى تجعلنا نتحكم فى حركتنا لنحدد من أين نبدأ وإلى أين ننتهى ، أو كأننا - إذا استعرنا التعبير القديم - نخبط خبط عشواء فى تيه سحيق تاهت تحت أقدامنا مسالكه ، وغامت أمام أعيننا آفاقه .

ولكى تتضح الرؤية يكفى أن نعود إلى الجيل الماضى فى حياة مجتمعنا الثقافى لتتبين لنا حقيقة لا نستطيع أن نختلف حولها ، وهى أن هذا الجيل كان بحق جيل العمالقة الذين ظلوا حتى اليوم القمم الشامخة فى حياتنا الثقافية فى شتى مجالاتها ، وهوجيل مازلنا حتى اليوم نرى فيه المثل الأعلى لنهضة ثقافية عجزنا عن أن نحقق مثيلاً لها ، ولكى نكون منصفين يجدر بنا أن نقيد هذا الحكم قليلاً ، ولكن يظل الفرق - مع ذلك - قائما بين جيلين - : جيل ترتفع قممه الشامخة على امتداد الطريق الثقافى ، وجيل تبدو القمم فيه متناثرة هنا وهناك فى الساحة الثقافية الواسعة ، وأنا أعرف أن العبقرية لا تزال سرا مجهولا لم يصل العلم الحديث - على الرغم من تقدمه المذهل - إلى أن يكشف عنه ، وأنها ظلت ظاهرة خارقة للطبيعة لا تخضع لقوانين الزمان والمكان .